ع 100-10 253

سيمون بفايفر

رقم الجرد: 88898
رقم الفاتورة: DON
التاريخ: 10.10.010
الأصل: MES.RS

مذكرات جزائرية عشية الإحتلال

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
المكتبة المركزية

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور أبو العيد دودو

دار هومه

الفصل الثاني عشر
أحداث وقعت في الجزائر

لابد أن أتعرض الآن لأحداث أهم مما كنت بصدد الحديث عنه. ففي أول شهر أوت من سنة 1829 رست بميناء الجزائر سفينة فرنسية تحمل الراية السلمية البيضاء وعلم الداى[18]. وكان على ظهرها دي لابروتونير الذي وصل الى الجزائر مبعوثا من قبل الحكومة الفرنسية، ليعرض على الداي شروطا معينة للصلح. فذهب مرتين الى القصبة لمقابلة الداي، إلا أن مطالبه ما كانت لتحظى بموافقته، ولذلك رده خائبا وبشيء من الحدة[19].

وعند ظهيرة يوم 10 أوت استعدت السفيتة السلمية لمغادة ميناء الجزائر، إلا أن الرياح لم تكت مواتية، فأرغمتها على الإتجاه صوب الحامية الجزائرية، وقد طويت أشرعتها كلها وكمت فوهات مدافعها[20]، وكانت الأعلام ترفرف فوق مؤخرتها وفوق جميع صواريها، اعتقادا منها بأنها تستطيع أن تسير تحت حمايتها. وكنت آنذاك فوق سطح القصر والمنظار المكبر في يدي، فشاهدت السفينة تقترب من المواقع الدفاعية الجزائرية، فصدرت عن وحدات الأسطول الجزائري عدة طلقات نارية (إنذارا للسفينة بعدم الإقتراب من موقعها)، وكان المفروض أن تتوقف السفينة عن السير، ولكنها لم تعبأ بذلك الإنذار الذي وجه اليها، واستمرت في سيرها الى أن اصبحت تحت خطوط الحماية، فوجهت اليها هذه ثلاث طلقات أخرى منذرة إياها محذرة. وعندما رأي الجزائريون أن الفرنسيين لا يهتمون بذلك أدنى اهتمام، صوبوا نحو السفينة بضع قذائف، ولما لم تفد هذه ايضا، راحت الحامية الجزائرية تمطرها حمما، وشاركت في ذلك المدفعية الثقيلة[21].

وكان من حسن حظ الفرنسيين ان سفينتهم كانت قريبة جدا من مواقع المدفعية الجزائرية، فكانت القذائف تمر فوق رؤوسهم دون أن تلحق بهم ضررا كبيرا ولم يرهب الربان الفرنسين تلك القذائف، بل أمر بحارته بالصعود الى ظهر السفينة، وأمر بكل تحد وتبجح وفخفخة أن تسير سفينته عبر القذائف المتساقطة على طول الساحل بقدر ما تصل اليها قنابلها، واستمر إطلاق النار حوالي ثمان وعرشين دقيقة.

وقد صعد الجزائريون كلهم تقريبا الى سطوح منازلهم وتجمعوا فيها أثناء ذلك، وكان منظرهم شيقا جدا، فقد استطعنا من قصرنا، الذي يقع فوق الهضبة، ومنه تنحدر مدينة الجزائر نحو الساحل بين عدد من التلال، أن نرى المدينة كلها تقريبا. كانت سطوح البيوت البيض مغطاة بالبشر، فكنا نرى جمعا من الأتراك بثيابهم الخضر والحمر والصفر، وعمائمهم المطرزة بالذهب، وقد سطعت الشمس فوقها، فالتمعوا في كل مكان، بينما كان العرب ملتفّين في برانيس بيضاء وسوداء. وهنا وهناك كنا نرى أسرابا من النساء وجوههن مقنعة بالفوطة، من غير أن يهتممن ببقية أجسامهن وهن ملتفات في الحائك. ولمحنا الى ذلك عددا من اليهود ورجالا ونساء وأطفالا في القسم الأسفل من المدينة، وقد ارتدوا ثيابا سوداء أو زرقاء غامقة، يضطربون هناك دون توقف كالنمل. وكان الصخب يتعالى بلغات مختلفة، معبرة عن آراء وتصريحات، اهتمت بها كل الإهتمام، لأني أصبحت أفهمها. وقد اجتمعت الآراء كلها تقريبا على تحطيم السفينة الفرنسية بكل من فيها، فمن واجبهم القضاء على الكفار وإهلاكهم.

ولا مناص لي أن أذكر بهذه الحادثة ايضا ان الداي قد أقال وزير الشؤون البحرية، وولى مكانه آنذاك إنكشاريا سافلا، وذلك ليبرىء نفسه ما جناه غيره من الأتراك، وليعلو اسمه بين الأروبيين كما لو أنه لم يصدر أوامره بإطلاق

النار على السيفينة. ولما نفي وزير الشؤون البحرية، سخط على الداي أصدقاء الوزير وازدادوا له كرها، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ على التصريح ببراءة المطرود، ماعدا حسين الشهم، زوج ابنة الداي، فقد أكثر الشكوى من الظلم الذي حل بالوزير، واتهم الخزناجي أفندي والآغاء أفندي (وكان الأخير صهرا للداي أيضا) بأنهما سبب هذه المحن كلها، فقد عملا على إسقاط عمه يحي آغا، الذي كان يشغل منصب وزير الحربية طيلة عشر سنوات، خدم خلالها الداي بكل إخلاص، وكانا بالإضافة الى ذلك سبب هذه الحرب مع فرنسا، فهما اللذان أشارا على الداي بضرب السفينة الفرنسية السلمية.

ومن الملاحظ هنا أن حسينا ينتقد أعمال هذين الأفنديين، مع أن أحدهما عديله، ويرى فيهما قاتلي عمه الحبيب، وهو على حق في ذلك، كما سأتحدث عنه بع قليل. لقد شكا الوزيران أمره الى الداي وأثاراه ضده، فسخط عليه وأمر بأن تطلق ابنته من حسين في الحال وتبعد عن حريمه. وكان حسين المسكين آنذاك في العشرين من عمره، وكان قد تزوج ابنة الداي الثانية بواسطة عمه يحي، الذي كان في ذلك الوقت آغا أفندي، وحسين لم يتجاوز بعد سنه الثانية عشرة. وها هو الآن يبعد عنها بالقوة، ولم يتراجع الداي عن قراره ولا تخلى عن عناده وتصلبه رغم نواح ابنته وعويل بقية النسوة وتوسلات بعض اصدقاء حسين اليائس. إن كبرياء الداي لم تسمح له بالتراجع في أمر أصدره مهما بلغت قسوته، فقد تعود ان يردد ان ما لفظه السلطان لا يمكن ان يبلعه ثانية. وسلم لحسين مبلغ كبير أجرة لسفره، وأرسل إرضاء لحاسديه ومطارديه، الى تونس ليبحر منها الى القسطنطينية.

قد تألمت لمصير حسين أشد الألم، خاصة وأني كنت قد تعرفت اليه على الصورة التالية: كان قد جرح نفسه ذات يوم في راحة يده بقطعة زجاج فجاءني ودماؤه تسيل، فضمدت جرحه وعالجته الى أن برىء منه. وما أكثر ما كان

يزورني فيما بعد ويقيم معي ساعات طوالا وقد حدثني عن عمه أكثر من مرة. ومع أن الأتراك يتجنبون أساسا الحديث عن الحريم، فإن حسين كان يحدثني عن سعادته بزوجته الشابة وعن الحب المتبادل بينه وبينها. وكان يعيد علي مرات عديدة أن سعادته ستكون أكمل لو أتيح له أن يسلم من معاكسات اعداء عمه وتعرضهم له في كل مناسبة. وينبغي أن أعترف أني اعتبرت حينئذ شكواه وهما أكثر منها حقيقة، وقد قلت له ذات مرة مازجا معزيا في نفس الوقت:

ـ هدىء من روعك! سيكون في مقدورك، حين تصبح باشا الجزائر، أن ترسل كل أعدائك الى تركيا حتى تسلم من أي ضرر يمكن ان يلحقوه بك، وتعيد الي حريتي ايضا لأكون جراحك الخاص.

فأجابني في خوف بأنه لايمكن الحديث عن ذلك الآن مادام حموه على قيد الحياة، ثم أضاف قائلا:

ـ إذا حدث ما تقول، فلسوف يبهجك أن تكون تعرفت الي، لأني سأرفع منزلتك فوق الجميع، ولكي أطمئن عندئذ يجب أن تضع عمامتي فوق رأسي وتصبح وزير ماليتي.

ولكم ضحكنا فيما بعد على أفكارنا هذه، التي ترسم في سجل اقدارنا. وبعد أن ترك الشاب حسين الجزائر بأشهر، زوج الداي ابنته، وهي لاتزال حزينة على زوجها، من وكيل الحرج الجديد، المدعو مصطفى، ليطرد ذكرى حسين عن قلب ابنته. وهناك دليل آخر على مدى خضوع الداي لما يشير به عليه وزراؤه، وهو أن تصرفه هذا قد أثار أحقاد عدد كبير من الإنكشاريين عليه فضلا عن أصدقاء وزير الحرب القتيل، وأصدقاء وزير البحر الطريد، الذين قرروا في الخفاء أن يثأروا من الداي حسين باشا ثأرا فظيعا[22].